العرب
الجمعة 2020/02/21
السنة 42 العدد 11624

إدلب تخون التاريخ وتخلص إلى الجغرافيا

فاروق يوسف
كاتب عراقي

كانت إدلب فخاً نصبته روسيا للحالمين السوريين، ولم تكن تمثل حلا إلا بالنسبة للجماعات الإرهابية التي تفرّقَ أفرادها الأجانب بين مختلف البلدان، ما إن خرجوا أحياء بفضل صفقات مريبة رعتها دول معروفة.

بالنسبة للتنظيمات الجهادية، وهي شركات أمنية تتألف من مرتزقة استأجرتهم قوى وجهات دولية من أجل توسيع دائرة الحرب في سوريا، فإن تلك الحرب كانت قد انتهت في إدلب.

أما السوريون الذين أبوا الاعتراف بأن الطريق قد أغلقت، فإنهم أوهموا أنفسهم بأن إدلب ستظل محميّة باعتبارها الجدار الأخير الذي يخطون عليه شعارات الحرية.

كانت الكذبة أكبر من أن يتمكنوا من كشف تفاصيلها. ولم يكن الرهان على الوقت صحيحا. ذلك لأن الأوراق اختلطت. ولم تعد المعارضة لتقوى على قول الحقيقة، بعد أن تم استضعافها، وتدهورت مصداقيتها في ظل التمويل غير الطبيعي الذي تمتعت به الجماعات الإرهابية.

الجريمة التي ارتكبت بحق السوريين لم تبدأ في إدلب. إدلب هي خلاصة الفجيعة. من اليسير هنا أن نلقي عبء الجريمة على النظام. صار ذلك مشاعا. ولكنه لا يمثل الحقيقة كلها

لذلك تحولت إدلب من جنة للمقاومة، إلى مأوى للعيش الآمن.

غير أن ذلك لن يستمر طويلا. فالدولة السورية مطالبة باسترداد أراضيها وفرض سيطرتها على حدودها، وهو ما لا يمكن تحقيقه من غير استعادة إدلب بعد استعادة ريف حلب.

لا أعتقد أن أحدا يمكنه الاعتراض على ذلك.

مطلب قانوني طبيعي ينطوي على الكثير من وجوه المأساة.

فسوريو إدلب، الذين هم نازحون أصلا، لن يكون أمامهم سوى أن يقوموا بنزوح جديد. ولكن إلى أين؟

سيكون علينا أن نفكر بحيرة أكثر من مليون شخص صاروا عالقين بين وهمين.

وهمُ الإبادة الذي قد لا يكون حقيقيا، إلا إذا كان القرار يقوم على أن تتم استعادة إدلب أرضا محروقة.

ووهمُ اللجوء إلى الأماكن التي لم تصل إليها نار الحرب حتى الآن وقد تصلها في أي لحظة.

علينا أن نتخيّلَ مشهدا ثقيل الوطأة على الروح.

مليون إنسان هم شعب يطارد مصيره من غير أن يلتقط الخيط إلى حقيقة ما سينتهي إليه.

أطفال ونساء وشيوخ وشباب. الجميع على حد سواء يشعر أن ثيابه معبأة بالخوف وأن هناك مَن يتعقبه ليقتله.

الجريمة التي ارتكبت بحق السوريين لم تبدأ في إدلب. إدلب هي خلاصة الفجيعة.

من اليسير هنا أن نلقي عبء الجريمة على النظام السوري. صار ذلك مشاعا. ولكنه لا يمثّل الحقيقة كلها.

إدلب تكشف عن وجه آخر من وجوه الحقيقة السورية. هو وجه الضحية التي غدر بها الجميع.

فهؤلاء الذين تضيق بهم الأرض الآن لم يكونوا مقاتلين.

لقد دُفعوا إلى أن يكونوا في المكان الخطأ. غررت بهم الجماعات المسلحة المهزومة، ولم يكونوا على ثقة بالنظام.

تلك حلقة منسيّة من حلقات الحرب في سوريا. وكم كان لاجئو إدلب سعداء بنسيانهم. كانوا سعداء لأن الجماعات الإرهابية حملت أموالها وهربت، غير أن النظام لم يبذل جهدا في تهدئة مخاوفهم.

ذلك ما سيدفع بهم مرة أخرى إلى الفراغ.

على المستوى الإنساني فإن النظام يرتكب حماقة كبرى في عملية عسكرية يقوم بها لأسباب وطنية. في تلك الحالة يمكن تقديم الإنساني على الوطني.

فليست سوريا في حاجة إلى أن تضيف صفحة جديدة إلى صفحات سجلها المأساوي.

غير أن الأمر قد يتخطّى إرادة النظام. ذلك لأن تركيا وروسيا تساهمان في تأجيج الوضع في إدلب، بما لا يساعد على البحث عن حل إنساني لمسألة شائكة.

لاجئو إدلب هم ضحايا غير أن إنقاذهم أمميا صعب.

فالدولة التي لا يثقون بنظامها من حقها قانونيا أن تعيد بسط سيطرتها على إدلب. وهم يعتقدون أنهم سيكونون مواطنين غير مرغوب فيهم.

كان من الممكن أن يكون الحال على غير ما هو عليه لو أن الدولة حاولت أن تطمئنهم إلى مصيرهم. ولكن الوقت أعمى.

لذلك فإن إدلب تخون التاريخ وتخلص إلى الجغرافيا.

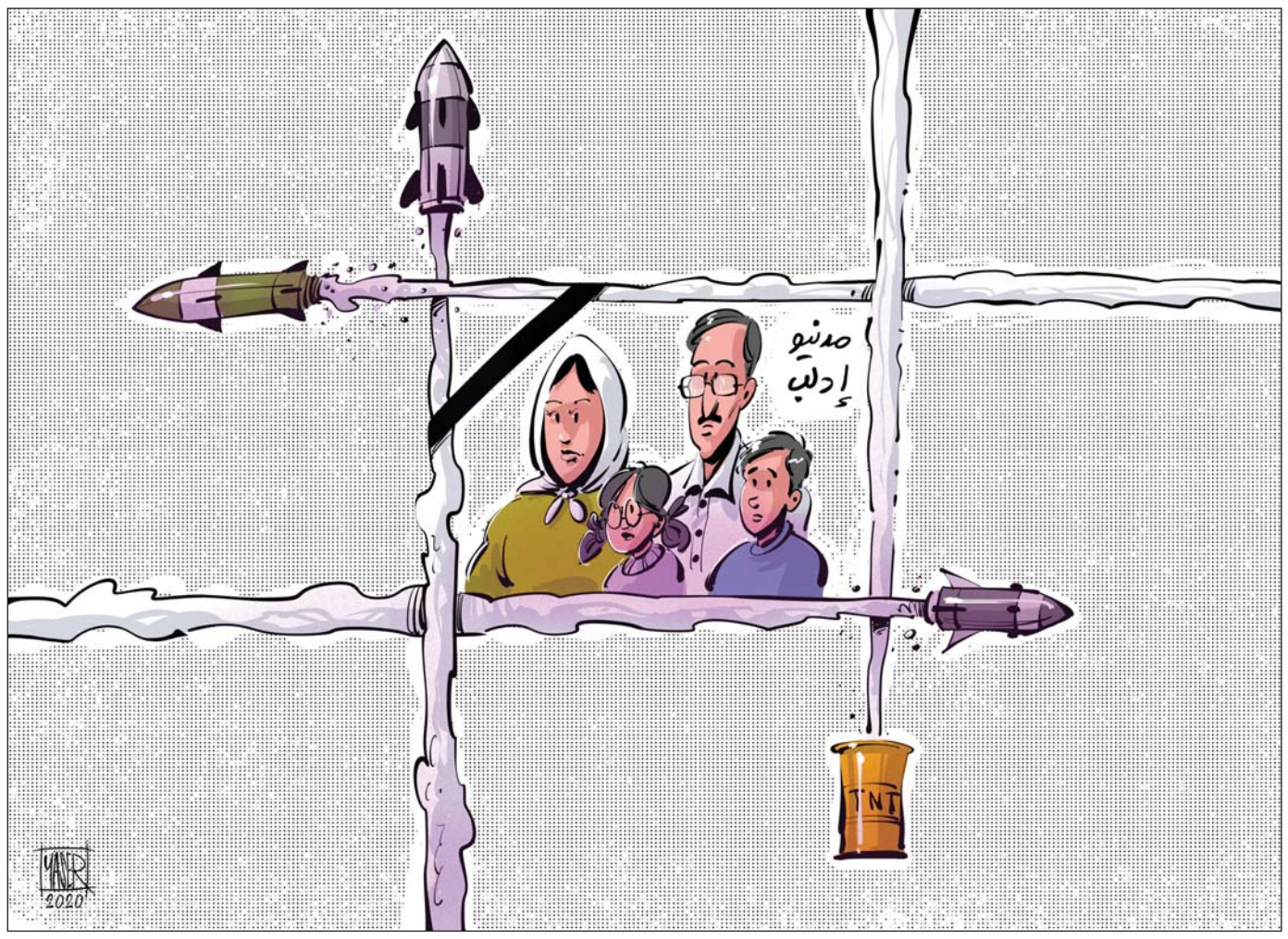

حسابات روسية وتركية

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

هل تحصلُ مواجهة مباشرة بين تركيا وروسيا فوق الأرض السورية؟ الأمر مستبعد إلى حدّ كبير. ستستمر المواجهة بين النظام السوري، مدعوما بالميليشيات الإيرانية والطيران الروسي من جهة، والجيش التركي والميليشيات التابعة لتركيا من جهة أخرى. ستستمر مثل هذه المواجهة خصوصا إذا أصّر الطرف التركي على طلبه العلني. تريد تركيا أن يتراجع الجيش السوري إلى خلف نقاط المراقبة التركية قبل نهاية شهر فبراير – شباط الجاري. هذا هو الهدف التركي المعلن. إنّه هدف معلن يخفي أهدافا أخرى.

في العمق، تسعى تركيا إلى تحقيق تلك الأهداف الأخرى من نوع استخدام ورقة إدلب كي يقبل الروسي أن يكون لها دور في مناطق أخرى، بما في ذلك ليبيا. انكشفت تركيا رجب طيب أردوغان في ليبيا، وباتت تحتاج إلى تغطية روسية بعدما تبيّن بوضوح أنّها مستعدة أن تكون مجرّد رأس حربة للإخوان المسلمين ولطموحاتهم في المنطقة كلّها. هل من إساءة إلى الثورة السورية التي تدّعي تركيا أنّها داعمة لها أكثر من إرسال ما يزيد على ألفي سوري كي يقاتلوا إلى جانب أحد طرفي الحرب الدائرة الآن في ليبيا؟

خلف المأساة التي تشهدها إدلب والمنطقة المحيطة بها، هناك حسابات تركية وأخرى روسية تتجاوز الشمال السوري. ستبقى روسيا داعمة للنظام السوري من الخلف لوقف القتال بين الطرفين، وفق شروط محدّدة. ستستمر في التفاوض، في الوقت ذاته، للحفاظ على المصالح الروسية في المنطقة.

من المرجّح أن تتخلل المرحلة المقبلة مفاجآت ذات طابع عسكري من نوع استخدام تركيا لأسلحة ثقيلة وأخرى مضادة للطيران. سيكون هناك استهداف تركي للطيران التابع للنظام وليس لروسيا. لن تستخدم تركيا شبكتها المضادة للطيران ضد روسيا، خصوصا بعد حصولها على منظومة "أس – 400" الروسية وبعد الثمن الذي دفعته إثر إسقاطها لـ"سوخوي" روسية في العام 2015.

ما أسفرت عنه اللقاءات التركية – الروسية الأخيرة في موسكو هو توافق ظاهري بين الطرفين التركي والروسي. يهدف هذا التوافق المصطنع إلى بلوغ نوع من الهدنة، مع بقاء نقاط المراقبة التركية في مواقعها محاصرة من القوات السورية التابعة للنظام المدعومة من ميليشيات تابعة لإيران... والقبول بتسيير دوريات مشتركة. في المقابل، تقوم تركيا بحل "هيئة تحرير الشام" أو تغيير اسمها واحتواء اللاجئين السوريين في المناطق التي لا تزال خارج سيطرة النظام، مع استقدام بعض الدعم الدولي لها بغية مساعدة اللاجئين والنازحين الذين زاد عددهم على 800 ألف إثر موجة التهجير الأخيرة من إدلب ومناطق أخرى قريبة منها.

نعم، هناك في إدلب حسابات تركية وأخرى روسيّة. لكنّ هناك نقاط ضعف تركية وأخرى روسيّة أيضا.

لعلّ نقطة الضعف التركيّة الأولى غياب الإستراتيجية البعيدة المدى لدى رجب طيّب أردوغان. الواضح أن الرجل يمتلك طبعا انفعاليا قبل أيّ شيء آخر. إضافة إلى ذلك، ركب أردوغان رأسه وظنّ أن في استطاعته أن يكون سلطانا عثمانيا آخر. نسي أن الدولة العثمانية انهارت، قبل قرن من الزمن، وأن العالم الحديث بكلّ تعقيداته شيء، فيما أمجاد الماضي شيء آخر. هذا ما جعل مجموعة كبيرة من رفاق أردوغان في الحزب ينفضّون عنه. على رأس هؤلاء عبدالله غلّ وأحمد داوود أوغلو. الأخير أمضى أوقاتا طويلة في سوريا في مرحلة ما قبل الثورة التي اندلعت في مثل هذه الأيّام من العام 2011. تعرّف إلى عائلات سورية كبيرة وعريقة في مدن عدّة. حاول داوود أوغلو أيضا فهم طبيعة المجتمع السوري والموقف الحقيقي لهذا المجتمع من نظام أقلّوي وضع نفسه كلّيا في خدمة إيران، خصوصا منذ خلف بشّار الأسد والده في العام 2000.

مع مرور الوقت، تخلّى أردوغان عن مساعديه الذين كان في استطاعتهم إسداء النصائح له. عمد بدل ذلك إلى قول كلام كبير عن تغيير في سوريا من دون أي ترجمة لهذا الكلام على أرض الواقع. ارتكب حماقات كثيرة في الداخل التركي ومع الإدارة الأميركية، خصوصا بعد المحاولة الانقلابية التي قد يكون تعرّض لها في العام 2016. وجد نفسه في الحضن الروسي وإذا به الآن يسعى إلى التعاطي مع فلاديمير بوتين من موقع الندّ للندّ... وابتزاز أوروبا وأميركا في الوقت ذاته.

سقط أردوغان في سوريا يوم لم يستطع نقل تهديداته إلى أرض الواقع. تأخّر كثيرا في الحسم. صار الآن أسير قيود كثيرة، بينها ضعف الاقتصاد التركي والعلاقة مع روسيا والعلاقة المتذبذبة مع أميركا...

خلف المأساة التي تشهدها إدلب والمنطقة المحيطة بها، هناك حسابات تركية وأخرى روسية تتجاوز الشمال السوري. ستبقى روسيا داعمة للنظام السوري من الخلف لوقف القتال بين الطرفين، وفق شروط محدّدة

لن يغطّي الضعف التركي قول أردوغان إنّنا سنحول إدلب إلى "منطقة آمنة مهما كان الثمن من أجل أهلها، ومن أجل تركيا، وإنّنا جاهزون لاستمرار الاتصالات مع روسيا وأنّ المعروض على طاولة المفاوضات بعيد جدا عن مطالب تركيا". لن يعوّم موقفه قوله إن هناك "إصرارا" تركيا في إدلب وأنّ دمشق وداعميها لم يفهموا أن تحذيراتنا "هي التحذيرات الأخيرة وانّ هناك استعدادات لعملية عسكرية اكتملت وأصبحت جاهزة".

يرفض الرئيس التركي الاعتراف بأنّ بلده وضع نفسه في مأزق لا يستطيع الخروج منه بسبب تردّده أوّلا. هذا التردّد جعل تركيا عاجزة عن الحسم في سوريا. ما يزيد هذا العجز أن تركيا مضطرة إلى مراعاة إيران أيضا. ألم يكن من الأفضل لو تحرّكت تركيا منذ البداية، أي في العام 2011، ووضعت روسيا وإيران أمام الأمر الواقع في سوريا؟

فات أوان الحسم التركي. لكنّ ذلك لا يعني أن روسيا في وضع جيّد في سوريا. في نهاية المطاف، إن مشكلة روسيا، بعيدا عن موقف المتفرّج للجانب الأميركي، تكمن في أنّها تريد أن تكون صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة في سوريا، ولأن تتلطّى خلف نظام لا يمتلك أي شرعية من أي نوع. أكثر من ذلك، تبيّن أن كل المناطق التي عاد إليها النظام في الفترة الأخيرة بدعم من ميليشيات إيرانية، هي في الواقع خارج سيطرته. يظلّ ما يجري في درعا ومحيطها وحتّى في ريف دمشق المثل الأهمّ على ذلك.

إلى متى تستطيع روسيا لعب ورقة النظام السوري الذي لا يستطيع التحرّك على الأرض من دون الميليشيات المذهبية التابعة لإيران، ومن دون وحشية سلاح الجوّ الروسي الذي لا يفرّق بين بيت آمن ومستشفى ومدرسة أو موقع عسكري! مسكين الشعب السوري. يدفع ثمن تحوّل بلده إلى مستنقع لروسيا وتركيا ولإيران أيضا. إلى متى تستمر مأساة لم يعد معروفا هل يمكن أن تنتهي يوما من دون تفتيت كامل لبلد كان مرشّحا لأن يكون أحد أهمّ البلدان في المنطقة؟